ظلال شبح

الفن...السحر...الجمال

عوالـم رائعـة دائمـاً مـا تجعلـني أنجـذب إليهـا وانتبـه لهـا، فبرغـم أني لا أملـك ثـروة طائلـة تجعـل كل تلـك الروائـع بقبضـة يـدي، وقتمـا أرديهـا أسـتطيع الحصـول عليهـا، إلا أن حالـتي الاجتماعيـة المتواضعـة إلى حـد الفقـر الشـديد،لم تمنعـني مـن التأمـل بتلـك العوالـم المُذهلـة حـتى وإن كانـت مجـرد نظـرات عابرة،فأنـا رجـل حـالي كحـال معظـم الرجـال ننتبـه دائمـاً للجمـال البـصرى الـذى تلتقطـه عدسـات أعيننـا ونتعمـق بداخلـه إلى درجـة الفقـر، ولأن الحيـاة لـم تعطيـني نصيـبي مـن الجاذبيـة والوسـامة اللـذان يعتـبران سـبباً رئيسـاً وأساسـيًا فى جـذب الإناث،وهـذا أيضـاً لـم يقـف حاجـزاً أمـام تمتـع حدقـتي عيـني الضيقتـان فى سرقـة ولـو لحظـات قليلـة فى رؤيـة الجمـال الأنثـوي السـاحر،من حـولي يظهـر وينتـشر أمامـي مـن كل اتجاه،الـكل يمتلـك خيـالاً شاسـعًا وأنـا أشـبع خيـالي بالنظـر إلى هـذا السـحر الفاتن،حـين تقـع عيـني عـلى إحداهـن أمـلأ تلـك الطاقـة الجامحـة بداخلي،فقـط بلحظـات عابـرة بخيـالي المريـض أمتلـك تلـك الحسـناء المـارة مـن أمامـى ولـو ثـواني معدودة،حـتى تقـع عيـني عـلى أخـرى أكـثر منهـا جمـالاً وحُسـنًا وهكـذا تسـتمر الحكايـة، أعلـم بـأن نظـراتي الوقحـة والخادشـة لحيائهـن وخصوصيتهـن تفضـح مـا بداخـلي مـن أمـاني لقضـاء ولـو سـاعة واحـدة مـع إحداهن،لكـن أيضـاً هـذا

لـن يمنعـني مـن ممارسـة هوايـتي المفضلـة، فأنـا أرى بداخـل أعينهـم نظـرات الاحتقـار والاشـمئزاز وهـذا مـا يجعـل نظـراتي إليهـن أكـثر جـرأة ووقاحـة، بنظرهـن وبنظـر الجميـع مجـرد كائـن دميـم قـذر بقامـتي القصـيرة وجسـدي السـمين العفـن المُترهـل، ودمامـة قسـمات وجهـي الأسـود اللـون لدرجـة الاخـتراق، ضخمـة ملامحـي بأنفـي المكـور البغيـض والـذى يشـبه بشـدة أنـف مُهـرج سـيرك تعس،الاختـلاف الوحيـد هـو اللـون الأحمر،أمـا عـن شـفتاي الغليظتـان بلونهمـا الداكن،تُكمـل مـن دمامـة وجهـي أكـثر وأكـثر، ولـم أجـد رغـم كل هـذا حاجـزاً وإن كان إسـمنتي يمنـع اسـتمرار مـا أعشـق ومـا أريـد، حـتى أتى اليـوم الـذى وقعـت عينـاي فيـه عـلى أجمـل وأروع مـا رأيـت مـن فتنـة وسـحر وجاذبيـة قويـة جامحـة، كُنـت فى ذاك اليـوم أُمـارس هوايـتي المُحببـة لقلـبي، أتأمـل بتمعُـن شـديد وتفـنن عـالي الدرجـة بـين النسـاء السـاحرات مـن حـولي، حـتى أنسـخ بذاكـرة عقـلي ملامـح كل واحـدة منهـن عـلى حـدة بمُنحيـات جسـدها النابـض المُثـير وتفاصيلهـا الصارخـة بالأنوثـة، حـتى أحصـل عـلى حصيلـة مُرضيـة لي كي أعـوض فى بحـر مُخيلـتي الرائعـة الـتى تجعلـني شـهريار عـصري جالسـاً بـين دلال وجمـال نسـاءه الفاتنـات، كُنـت هائمـاً فى دنيـا الخيـال حـتى التقيـت عيـني بأعينهـا السـاحرة الخلابـة، قادتـني قدمـاي إليهـا بلاواعـى، لأجـد نفـسي واقفـاً بداخـل دكان صغـير قديـم مُتهالـك مـر عليـه الزمـن بعـزم مـا فيـه مـن قـوة، إضاءتـه الخافتـة المُسـلطة عليهـا فقـط وحدهـا، اقتربـت منهـا أكـثر حـتى تلاشـت المسـافة بيننـا، كانـت حدقـتي تـدور بـلا توقـف بـين قسـماتها السـاحرة، نظـراتي المُتلهفـة للحصـول عـلى كل هـذا الجمـال الفاتـن للأعـين، أنفـاسي المُضطربـة، كلُ مـا فيَّ يـصرخ إلى حـد الجنـون، هممـت برفـع يـدي كي أشـعر بملمسـها الناعـم بـين يدي،لكـن اسـتوقفني صـوت صاحـب الـدكان العجـوز الـذى جعلـني أتمتـم بأبشـع السُـباب عليـه لمقاطعتـه الغريبـة للقاءنـا الأول معاً،قائـلاً بنـبرة متشـكرة تبعـث مـن خلالهـا أنفـاس فمـه الكريـه:

-هل أعجبتك يا سيدى؟

أومأت له برأسي بالإيجاب فقط ولم أهتم بالرد عليه، من كنتُ أرجو على أسناني حنقاً منه حتى لا أرتكب جريمة معه، فتابع هو ببشاشة وجهه المُجعد البشع،وقرأت ريقه المُقزز تتطاير أمام وجهي بسبب فقدانه لمعظم أسنان فمه:

-إن أعجبتك فثمنها بخس يمكنك شراءها الآن

ارتسمت علامات الذهول والسعادة على وجهي وأنا أجيبه بحماسة شديدة جعلته يستغرب تغير حالتي بسرعة من ممل هادئ إلى متحمس غبي:

-حسنا كم ثمنها يا عم؟

-خمسة وعشرون جنيه فقط

لم أناقش فى شئ، بل أعطيته ما طلب وزيادة عليه خمس جنيهات بقشيش،لم أنتظره وهو يقوم بعد النقود ليتأكد، قمت بحملها بين ذراعي بسرعة، واتجهتُ بها إلى مكان المسكن الذى أعيش به ولم أهتم حتى بنباح كلاب الشارع وكأنها كانت تُحذرني، مهرولاً فرحاً كطفلٍ صغيرٍ تمكن من الحصول على جائزته الثمينة هذا ما كنتُ عليه وقتها، وما إن وصلت حتى أغلقت باب غرفتي خلفي فأصبحنا أنا وهى وحدنا فقط، أسندتها على الحائط برفق و أضأت الضوء وسلطته عليها هى فقط حتى أستطيع تأمل جمالها بتريث وعلى مهل شديد،جمالها كان يشع خارج الإطار الخشبي الذى يحوز لوحاتها البديعة، نعم لوحاتها لا تستغربون فهي ليست مجرد خليط بين ألوان مُتشابكة أو امتزاج مُتداخل بين خطوط مرسومة ببراعة، بل هى بالنسبة لي أنثي حية متكاملة الأنوثة والجمال، لها

روح تفيض بالحياة ولها نبض ينبض بتناغم مع خفقات قلبي المتسارعة، سأوصفها بكل تفاصيلها الفاتنة لحضراتكم ولكم أن تتخيلوا، إنها امرأة استحوزت على جمال نساء العالم كله دفعة واحدة، كانت تقف بدلال أنثوي مُثير ترتدى ثوبًا مخمليًا أسود اللون مُنساباً على جسدها الخمرى الحي يكشف محاسن منحنياتها متجنساً مع جسدها،إلى حد الإلتزاق بها كم تمنيتُ أن أكون ذاك الثوب المحظور والذى ينعكس عليه دفئ بشرتها وسحر مفاتنها الجاذبة،شعرها الأسود المُموج المُنسدل على كتفها الأيمن بسلاسة وعفوية بلمعانه الشديد كأنه يؤكد لي أنها بالفعل حية،لها نظرة قوية قادرة على جذب الانتباه يحيطها الكحل الأسود كسواد الليل يبرز جمال لون عينيها الكهرمانية اللون،أما عن أنفها المُنمق الصغير زاد من روعة سحرها أكثر شمتها الرقيقة بالجانب الأيسر من شفتيها اللامعتان باللون الأحمر الثاني، النبيذ المُعتق الذى نجح فى سكري بمنتهي السهولة،كل هذا الجمال والسحر تجعلني أهيم عشقاً بها وشوقاً لها،خلفها مرآه كبيرة الحجم، تعكس لي صورتها من الخلف والتى لا تقل جمالاً و روعة، مكتملة أمامي أتفرس بها على راحتي، ولكن ما يعكر صفو مزاجي هو ظل ذاك الشبح الرمادي الذى يقف بالجانب الأيسر من اللوحة، إنه ظل رجل لم أستطع تحديد ملامحه فهو مجرد ظلٍ رمادى يكاد أن يختفى، أوه أتمنى أن يتلاشى من اللوحة بكاملها وأخذ أن مكانه،لتتمتع حواسي بها عن قرب،لكن ما كان يُريحني هو نظراتها الثاقبة عليَّ فقط،فى بادئ الأمر ظننتُ انعكاس الضوء عليها هو السبب فتحركت ناحية اليمين تارة وناحية اليسار تارة أخرى، وهى مازالت مُثبتة عليَّ.

بقيت على تلك الحالة أتمعن فى رؤيتها حتى شعرت بنعاس شديد جعل جفاني يثقلن كالصخرة،فاستسلمت وغوطتُ بالنوم ولأول مرة أشعر بشعور الونس والدفء،مرت ساعات الليل عليَّ بسرعة غريبة وأنا مازلت

غارقاً بالنوم ،حتى رنّ بالغرفة صوت ضحكات وهمهمات أنثوية عالية رنّانة، استيقظت من ثُباتي العميق، أدور بعدستي في عتمة الغرفة،لكني لم أسمع تلك الضحكات والهمهمات العالية المجلجلة مرة أخرى،اعتبرتها مجرد تخيلات.

هممت بالرجوع للنوم مرة ثانية،فصعد صدى تلك الضحكات مرة أخرى، لكنها هذه المرة كانت قريبة جدًا مني، ظننت أنها تأتي من إحدى الغرف المهجورة،أحد ما يشاهد التلفاز أو يستمع للراديو،لكن لا يوجد أحد غيري يسكن بهذا السكن المشترك،فهو مبنى قديم متهالك آيل للسقوط في أي لحظة،فما من غبي غيري يضحي بحياته بذلك القبر من أجل إجارة شهرية بسيطة،زادت تلك الضحكات وتعالت أكثر،أصابني الخوف، ورشة قوية تكومت على نفسي وأغمضت عيني أختبي من الخوف الذى بالجانب،فجأة شعرت بأنفاس دافئة رقيقة الفرح تجاهي،فتحتهما بحذر، فما رأيته كان كالصاعقة بالنسبة لي،وقعت على أثرها من أعلى سريري، مُبتعداً للخلف حتى التصقت بالحائط خلفي،إنها هي، نعم هي تجلس بوضعية ساحرة رقيقة على حافة سريري، انعكس ضوء القمرالخافت عليها الذى ظهر فجأة مثل ظهورها، جعلها تتلألأ أمامي،تنظر نحوي نظراتها الجاذبة كما اللوحة،ترسم على شفتيها ابتسامة هادئة رقيقة، كنتُ أنتفض فزعاً وكل ما فيّ يرتجف بقوة،أنتني صورتها بتجربتها المُغرية تسألني بحزن:

- هل أنت خائف لهذه الدرجة مني؟

لم أجبها وبقيت صامتاً تتخبط أسناني ببعضها بشدة، تابعت وقد تبدلت قسماتها المشرقة الحزينة:

- حسنا لا تخف سأعود إلى مكاني باللوحة ولن أخرج منها مرة ثانية حتى لا تخف هكذا،

لم أستطع لحم لساني وأنا أراها تبتعد عني باتجاه اللوحة

فصحت بصوت عالٍ :

-لا تذهبي بل ابقي ...ابقي معي ولو لليلة واحدة

فابتسمت بهدوء واقتربت نحوي بخطوات متأنية بدلال يخطف الأنفاس، حتى أصبحت قريبة مني، ملامحها أمامي حية إلى حد الجنون، مددت يدي أتحسس دفء بشرتها فغمضت عينيها مستسلمة، رغم ارتعاشة جسدي كله إلا أنني استطعت الإحساس بنعومة بشرتها فهذه كانت المرة الأولى، التى ألمس فيها وجه امرأة، كنتُ غارقاً في بحر النعيم وحدى أمتلك كل هذا الجمال

-أنتِ جميلة جدًا، بل ساحرة أيضًا

ابتسمتْ ونظرت إليَّ، عيناها تلمعان لمعةً قوية ومشرقةً، فتابعت مسترسلا، وكأن ما يحدث بيننا الآن قد اعتدت عليه وأصبح طبيعياً

-ولكن أنتِ وحدك من خرج من اللوحة أم معكِ ذاك الشبح المُتلاشي البغيط ؟!

-أنا لوحدي من يستطيع الخروج ...أنا وحدي فقط

سألتها بغضب وقد برزت عروق رقبتي والغيرة تعبث بداخلي:

-ومن يكون ذاك المُتلصص؟

أجابتني بدلال وبنبرة دافئة ساحرة:

-إنه خيال الرسام الذى قام برسم هذا اللوحة، قال إنني جميلة جدًا وساحرة مثلما قولت لي، وطلب مني أن أوفق على أني ياسمين فوافقت

صحت بحدة بوجهها:

-لكن أنا غيره هو شبح أنا....

-أنت جسد حي ينبض بالحياة تتدفق الدماء بداخلك، مازال قلبك يصدر خفقاته أنت غيره، هو مجرد شبح وقد تلاشي، أما أنت روح حقيقية مازالت موجودة على وجه الأرض

وكأني بكلماتها سُحرت وقد ألقت عليَّ تعويذة ما، تلجم لساني وجحظت عيناي حتى كادت أن تخرج من مكانهما وتيبس جسدى، أحتاج نظراتها وأصبحت أكثر قوة وارتسمت على شفتيها ابتسامة واسعة تصل إلى أذنيها من الاتساع، مرة واحدة وجدت نفسي محمولاً على كتفها بوزني الثقيل الذى يصل إلى وزن خرتيت صغير، أُحمل بتلك السهولة، داخلي يصرخ من الفزع والرعب، كانت تحملني على كتفها وتقفز بي فى جميع أرجاء الغرفة، بخطوات واسعة تشبه القرود العائدة فى قفزاتها عده مرات، توقفت فجأة عن القفز لأجد يديها تحوز خصري كله كالمطاط، الرهبة والخوف تملكا مني حتى الموت، صدعت ضحكتها الهستيرية العالية، بطريقة مفزعة تشبه الصراخ، ثم قالت بصوتٍ عالٍ حسن كتيرة الرجال:

-أنت وأمثالهم تستحقون ما سيحدث، لكن فضولك العفن مثلك هو السبب الرئيسي بنهايتك تلك

مرة واحدة قذفتني بقوة نحو اللوحة المسنودة على الحائط، كأنني أسقط من سفح جبل عالٍ، لأجد نفسي مكبلاً، ولكن أجد من يكبلني واقفاً بنفس وضعية الشبح الرمادى،أراها حرة أمامي تتراقص حول جثتي الملقاة على الأرض، تمزق في لحمي بكلتا يديها بوحشية، تكتشف يتلذذ دمائي المتطايرة كراش الميتة، رفعت عينيها باتجاهي اللوحة، وارتسمت ابتسامة مستفيضة ودمائي تلطخ وجهها المرعب، قائلة بنبرة منتصرة حاقدة:

-بالآخرين للأسف سيكون مصيرك كمن سبقوك فالرسام هو من كان أول ضحاياي مضغني بين أنيابه دون رحمة أو شفقة سرق مني براءتي وطاهرتي... ولكي يخفي جريمته الشنيعة بي...قام بقتلي بقلبٍ باردٍ وألقى جسدي الضعيف المتهالك من شرفة منزله الخلفية...وارتطمت جثتي بصخرةٍ قويةٍ وتركتُ هكذا....في العراء دون ستر وتكريم لدفن جثماني...أقسمت روحي أن تنتقم من أمثالك...إذا تخلصت منهم كما تخلصت منك....وسيبقي ظلك هكذا يتلاشى رويدا رويدا عن العالم ويختفي ....إن من يجرؤ على سرقة ماليس من حقه، سيكون مصيره هكذا، احذروا مني يا سارقي المتعة

تمت

فاطيما أبو زيد